مصطفى محمود

حذار..

لا هم تقدميون
ولا علميون
ولا موضوعيون

هناك شعارات من كثرة ماردها مروجوها ثم رددتها الصحافة من بعدهم .. تصورنا انها حقائق مع انها محض أكاذيب .. واكاذيب فاضحة اكتسبت جذورها من مجرد التكرار والطرق المستمر على الأذن .

ومن هذه الإكاذيب .. أن اليسار هو التقدمية وأن ما سواه من الاتجاهات رجعى .. وأن الدين أفيون .. وأن الشيوعية تحرير .. وأن روسيا قلعة التقدم فى العالم .. وأن المعسكر الشرقى هو جنة العمال والمعسكر الغربى هو جحيم البروليتاريا وجهنم الاستغلال .

وبعض هذه الكلمات قد اكتسب قيمة تجريدية فاصبح له قدرة ذاتية وتأثير ذاتى .. مثل كلمة .. يسار .. فنرى السذج يتناقلون هذه الكلمة على انها بديهية .. فلان يسارى يعنى عندهم أنه على حق .. دون ان يحاول الواحد منهم ان يفهم معنى هذا اليسار .. وانما يصدق الامر تصديقا حيوانيا .. ويردده فى آلية وتقليد ببغائى وكأنما الامر حقيقة مفروغ منها .

ولو انه كلف نفسه عناء التفكير . ولو قليلا من التفكير .. لتغير حكمه كثيرا .

فماذا تعنى كلمة يسار فى بلادنا مثلا ..

ودعونا نفكر فى حياد شديد .

ان كلمة يسار فى بلادنا وفى كل بلاد العـالم وفى قاموسها الاصلى تعنى فى اقصى حالاتها الوصول الى العدل بحل جذرى ووسيلة جذرية وذلك بانتزاع راس المال من اصـحاب راس المـال وانتزاع الارض من اصحابها والمصانع من ملاكها وانتزاع ملكية وسائل الانتاج من كل يد منتجة .. ليكون كل هذا ملكية دولة لا ملكية افراد ويكون كل الشعب موظفين فى هذه الدولة .. وهو ما نسميه عندنا بالتأميم او القطاع العام .. ومعناه ببساطة ان يحول الحاكم الشعب باسره وبجرة قلم الى عبيد لقمة .. لقمتهم جميعا فى يده .. ورزقهم فى يده .. وحريتهم بالتالى فى يده .. وبذلك يحول الجميع الى قطيع بلا راى وبلا حول وبلا طول .. وبلا جراة فى شىء وبلا حافز الى شىء .

وما تلبث ان تنتهى هذه المؤسسة العامة الى مجتمع

من اللامبالاة والكسل وفقدان الهمة والاهمال وسوء الانتاج ويصبح حالها تماما مثل حال الارض الوقف وهو ما نرى صورته حولنا فى كل مرافق القطاع العام والنتيجة هبوط الانتاج فى النوع والكم .. ثم انقلاب الاية فاذا ما تصوره الفلاسفة اليساريون على انه حل اقتصادى ينتهى الى العجز الاقتصادى .. فلا نجد علاجا سوى العودة الى الانفتاح والى مد الايدى الى القطاع الخاص والى اغراء المستثمر الفـردى من الداخل ومن الخارج .. نفعل ذلك فى بلادنا .. ويفعلون هم ايضا ذلك فى بلادهم روسيا .. وفى رومانيا والمجر وبولندة ويوغوسلافيا وفى كل معاقل اليسار .. يعود الكل فيأخذ خطوة واسعة الى اليمين .

اذن لم يكن اليسار هو الحق .

ولم يكن اليسار تقدما بل كان تخلفا .. لم يكن نظرة مستقبلية وانما نظرة متعصبة وغبية .

ولم يكن ازدهارا اقتصاديا .. بل انهيارا اقتصاديا .

ثم ماذا يعنى اليسار ايضا ..

أنك لا يمكن ان تنزع الارض من اصحابها والمصانع

من ملاكها ووسائل الانتاج من يد كل منتج دون أن تستخدم الجيش والبوليس وتسجن وتعتقــل وتشرد وتهدد وتضرب بيد من حديد .

ومن هنا كان القهــر والعنف والنظم القمعية من خصائص اليسار ..

ثم انه فى بلد صغير مثل مصر لا يمكن أن تفعل هذا دون أن تعتمد على معونة دولة كبرى مثل روسيا فتدعو الى بلدك النفوذ الروسى والأموال الروســـية والخبراء الروس ثم ترسف فى النهاية فى الديون الروسية .. والضغوط الروسية والشروط الروسية ..

ثم تكتشف بعد فوات الاوان أن روسيا ليست دولة ايديولوجية بقدر ما هى دولة كبرى تتصرف بمنطق الدولة الكبرى ذات المصالح .. وانك أمام استعمار من نوع جديد .. استعمار مذهبى عقائدى يؤلب عليك اهلك .. ويحرض الاخ على أخيه والابن على أبيه ويزرع الحقد والحسد والبغض والكراهية فى طريقك ويضع لك الشوك فى حلقك .

ذلك هو المضمون الخاق داخل كلمة .. اليسار ..

وفلان « يسارى » يعنى انه سوف يأتى لك بكل هذا البلاء .. فليس اليسار تقدما ولا الشيوعية تحريرا وانما هى اكاذيب صدقناها من فرط ما رددها اصحابها وأمعنوا فى تكرارها على مسامعنا وطبعوها وروجوها وهتفوا بها وحلفوا بها ونسجوا عليها الروايات ودبجوا المقالات والفوا المسرحيات .. وهى اكاذيب واكاذيب واكاذيب ..

وحيثما تحرك اليسار فى بلد تحرك معه الخراب وسال الدم فى انجولا فى البرتغال فى اسبانيا فى نيجيريا فى تايلاند فى لبنان وهنا فى أحداث ١٨ ، ١٩ يناير .

مظاهرات اليسار فى عهد ديجول أشرفت بالاقتصاد الفرنسى على انهيار كامل .. واضرابات العمال فى انجلترا هبطت بالاسترلينى الى الحضيض ..

واليسار فى اى بلد يعيش على ما يتيحه النظام من حريات فاذا تسلم هو زمام الحكم صادر الحريات وقطع الالسن وملا المعتقلات واعطى جميع الابواق لصوت الحزب وحده .

واليسار يحارب الحرية فى بلده كما يحاربها خارجه .

الدبابات الروسية دكت صـــوت الحرية فى المجر وخنقت صيحة الديموقراطية التى اطلقها دوبتشك فى تشيكوسلوفاكيا .. لانه لا شىء يفضح كذبة اليسار والشيوعية مثل الحرية والفكر الحر والنقاش الحر .

وليس صحيحا أن المعسكر الاشتراكى هو جنة العمال والمعسكر الراسمالى هو جحيم العمال .. فتلك كذبة أخرى .. فالعمال فى أمريكا وانجلترا والنمسا والسويد والنرويج والمانيا يتقاضون اجورا أعلى ويعيشون فى مستوى من الوفرة والرخاء أعلى من رفاقهم فى روسيا والمجر وبولندة والصين .

والعمال فى البلاد العربية يهاجرون من البلاد الاشتراكية سعيا وراء اجور أعلى فى الخليج والسعودية والكويت وهى البلاد التى يقول عنها اصحابنا انها رجعية .

تلك هى الحقائق ..

ولا يجدى فى تزييف هذه الحقائق الوف المنشورات ولا تجدى ابواق الاذاعات الموجهة .. ولا تجدى أغانى المرتزقة .. ولا اشعار الرفاق التى تصف الابيض بأنه أسود .. وتهلل للميت على أنه حى ..

ونحن ولا شك نعيش فى عصر التزييف والمزيفين ونروج لونا جديدا من الدعارة بالكلمات والزنا بالمعانى والمسافحة بالحروف .

وهل دعوى اصحابنا بان الدين افيون الشعب الا لونا صارخا من هذا الزنا بالالفاظ ؟

وهل الدين الا ذروة اليقظة والانتباه .

وماذا يكون حال المسلمين الذين يقول لهم ربهم :
« وان تبدوا ما فى انفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله »
٢٨٤ ــ البقرة .

ماذا يكون حال مثل هؤلاء المسلمين الا الخوف الدائم واليقظة الدائمة والانتباه الدائم لكل خاطر يخطر فى القلب .. فهذا هو الله يحاسبهم على مواطن النيات كما يحاسبهم على شواهد الاعمال .

فأين لهم النوم ..

وأين هم من سكرة الافيون .

انما المساطيل حقا واهل الغفلة الذين يعيشون فى خدر الاوهام الباطلة هم أهل المذاهب المادية من

شيوعيين وغيرهم .. ممن تصوروا أن لا شيء وراء هذه الحياة ولا شيء بعدها فان غنموها فقد غنموا كل شيء ولو بالقتل وسفك الدماء فلا حسيب من بعد ولا رقيب .

هؤلاء هم الذين يعيشون فى خدر الأفيون حقا ..

هؤلاء هم الذين خدرتهم أطماعهم وأهواؤهم وشهواتهم ..

وهؤلاء هم الذين اعمتهم أحقادهم وأضغانهم فتصوروا انه لا وجود لأى شيء وراء هذه الأحقاد والاطماع . حسبهم لحظتهم .. فليعيشوها .. او فليسرقوها .. ثم لا يعبأوا بشيء بعد ذلك ..

وتلك هى طمأنينة الغفلة وراحة الافيون وسكينة آكلى المخدرات .

وتلك هى حبوب الهيروين التى يروجونها .

ومن أكثر الأكاذيب شيوعا .. قولهم الدائم الدائب .. بأن الماركسية علم ودعواهم بأن كلامهم هو الكلام العلمى وفكرهم هو الفكر الموضوعى واطلاقهم وصف

الاشتراكية العلميــة على مجموعة الأفكار الظنيــة والمنشورات التحريضية التى يروجونها .

ولم يكن كارل ماركس علميا حينما انتقى من التاريخ بضع مراحل على هواه ولفق منها مذهبا طبقه اعتسافا على التاريخ كله .. وكان حاله مثل حال اليهودى الآخر فرويد الذى اخذ من دفتر الهستريا بضع حالات ولفق منها مذهبا فى الغريزة الجنســية طبقه اعتسافا على كل الأصحاء الأسوياء من البشر فجعل من البشر مجموعة من القرود تلهو باعضائها التناسلية فى جبلاية كما تصور شقيقه الآخر كارل ماركس عجلة التاريخ تحركها يد الصراع الطبقى .

وتعمد كارل ماركس اسقاط مراحل كاملة من التحول التاريخى لأنها ناقضت مذهبه .. فهل كان علميا فى استقرائه .

لقد قال ماركس أن كل انقلاب حضارى يأتى نتيجة انقلاب مناظر فى نظام الانتاج وعلاقات الانتاج .

فأين هذا الكلام من التحول الاسلامى .

لقد كان الاسلام انقلابا حضاريا هائلا .. ومع ذلك لم يأت نتيجة انقلاب مناظر فى نظام الانتاج وعلاقات الانتاج فى قريش .. وانما جاء كظاهرة فوقية مستقلة عن البيئة .. وهو بذلك يهدم كل الفكر الماركسى من اساسه ..

جاء الاسلام من البداية مقررا المساواة فى الفرص وضمان حق الكفاية للمواطن وتحقيق التوازن الاقتصادى بين الفرد والمجتمع وجاء بمبدأ الملكية الخاصة والملكية العامة ومبدأ الاقتصاد الحر الموجه .. وجاء بكل ذلك فى الجزيرة العربية فى وقت لم تكن ظروف الانتاج تدعو اليه بحيث يمكن ان نقول ان ما حدث كان انبثاقا من واقع اقتصادى .. وتحدى بذلك منطق الماركسية التاريخى وحساباتها المادية التى تحتم انبثاق كل انقلاب سياسى من انقلاب مناظر فى نظام الانتاج وعلاقاته .

فأين العلم فى كلام اصحابنا .

نحن أمام تلفيق أطلق عليه أصحابه وصف العلم ووضعوا عليه بطاقة الاشتراكية العلمية زورا وبهتانا .

ثم ان فكرة العامل الاقتصادى الواحد الذى جعل منه ماركس الها تصدر عنه الأشياء وسببا وحيدا تتداعى من ورائه كل التغيرات التاريخية فيما يسمى بالتغير المادى للتاريخ .. هذه الفكرة سقطت علميا والرأى السائد الآن فى ميدان الظواهر الاجتماعية انه لا يوجد سبب واحد مستقل وفاعل وانما هناك عوامل متعددة . تؤثر فى بعضها تأثيرات متقابلة فالعامل الجوهرى اليوم يمكن أن يصبح عاملا ثانويا فى الغد .. والعامل الاقتصادى بهذا لا يصلح أن يكون الها تصدر عنه الأشياء .

ثم ان افتراض النقاء والطهر فى طبقة البروليتاريا (العمال) وكأنهم جنس آخر قادم من المريخ او شعب الله المختار بحيث تسلم اليهم مقاليد حكم مطلق هو كلام غير علمى .. فالعامل والمثقف ومالك الأرض فى بلدنا هم غالبا افراد اسرة واحدة ومن بطن واحد ..

ثم ان الماركسية التى أراد ماركس أن يواجه بها ظروف القرن التاسع عشر المتخلفة وأوضاع العامل اليدوى الكادح المطحون لا تصلح علميا لمواجهة ظروف

القرن العشرين حيث قلبت ثورة التكنولوجيا جميع الموازين وخلقت طبقة جديدة من العمال المرفهين الجالسين أمام أزرار الكترونية ومن خلفهم نقابات عمالية قوية وقوانين للتأمين تحميهم ضد العجز والشيخوخة والمرض .

ثم هذه الدعوى الزائفة للماركسيين بحتمية قوانينهم وكأنها قوانين منزلة من اللوح المحفوظ هي دعوى أخرى غير علمية فلا حتمية في الانسانيات .. وانما هناك على الأكثر عناصر ترجيح وظن وتخمين واحتمالات متفاوتة .. ولا حتمية الا في حركة الافلاك والكواكب وكرات البلياردو وتروس الساعات والمادة الصرفة .. وحتى المادة الصرفة ظهرت قوانين جديدة تخرج حركة الالكترونات فيها من أسار الحتمية الى مجال الحرية والاحتمال (قوانين هينزنبرج) .

ثم ان دعوى الماركسيين بأن فكرهم شمولي يجاوب على كل سؤال ويفتح كل باب ويحل كل مشكل هو زعم فضفاض وغير علمي وهو مؤسس على الغرور والتعصب أكثر منه على النظر الموضوعي ..

ثم ماذا تعني المادية الجدلية بالمادة .. انها لا تعني الحديد أو النحاس أو الزئبق أو الخشب وانما هي تفهم المادة فهما تجريديا بأنها كل ما هو خارج الذات .. يقولون بهذا مع أنهم ضد التجريد .

ثم من أين جاءوا بأن المادة سبقت الفكر في مبدأ الكون .. ومن كان منهم حاضرا في مبدأ الكون ليزعم ان شهادته علمية .. انهم ما قالوا ذلك الا رجما بالغيب مع انهم يصرحون بأنهم ضد كل غيب وغيبية ثم اذا قالوا بأن المادة قديمة وبأنها جاءت بلا خالق .. الا يسقطون بذلك قانون السببية ويسقطون بالتبعية العلم كله الذي يقوم على السببية .

ان ماركس لم يقدم علما .. ولا كانت اشتراكيته علمية .. ولا أفكاره موضوعية .. وانما قدم ظنونا واصطنع تلفيقا بهدف التحريض والتهييج لقلب النظم الموجودة ..

ولهذا أخطأت جميع تنبؤات كارل ماركس وأخطأت حساباته فلم تخرج الشيوعية من انجلترا المتقدمة صناعيا وانما خرجت من الصين الزراعية وروسيا المتخلفة ..

ولم ينقسم المعسكر الرأسمالى وينهار ويتناقض وانما انقسم المعسكر الاشتراكى نفسه وتناقض وتصارع .. ولم تتفاقم الهوة بين العمال الكادحين واصحاب رؤوس الاموال المرفهين بل ضاقت ..

ولقد اخطأ ماركس فى تنبؤاته لانه لم يكن علميا فى حساباته .

ولو كانت الماركسية علما ثابتا فلم اختلف فيها الاتباع وتناقضوا وتقاتلوا ولم خرج الستالينى واللينينى والماوى والتيتوى والناصرى وراحوا يضربون بعضهم بعضا ويعتقلون بعضهم بعضا .

والعجيب انك اذا حاصرت الشيوعى المحترف بكل هذه الحجج العلمية القاطعة الدالة على فساد مذهبه فانه لا يقلع عنه بل يزداد عنادا فيه ويزداد لجاجة واصرارا وعمى وتعصبا .. ثم تكتشف فى النهاية ان هذه العلمية المزعومة ما هى الا قناع كاذب يلبسه الاتباع والمروجون والمهيجون وان حقيقة الشيوعية انها ليست علما ولا فكرا وانما هى طبع وحقد دفين وثار كمين يبحث عن مبررات ولغة مقبولة يظهر بها .

الشيوعية هى فكر فى الظاهر ولكنها خلق مادى فى الحقيقة وغلظة مادية وجاهلية لا تختلف عن جاهلية قريش .. ولهذا تنتهى المواجهة دائما بابراز السلاح والقتل والدم .. ولهذا تلجأ الشيوعية دائما الى الاساليب التحتية والتآمر والتدبير فى الخفاء حتى ولو توافر لها الجو الحر واللقاء المفتوح .. ولهذا تلجأ الى الغوغاء وتضطهد المثقفين ..

ولهذا تراجعت الاحزاب الشيوعية فى مؤتمرها الاخير بجنيف . وساومت وتنازلت .. تنازلت حتى عن احشائها وساومت حتى فى جوهر فكرها .. تنازلت عن دكتاتورية البروليتاريا وتنازلت عن الاممية وسمحت بالقوميات .. ولم تكتف بالتنازل عن عدائها التقليدى للدين وانما اعتنقت الدين ولبست مسوحه فعلت كل هذا من اجل الوصول الى الحكم بأى سبيل .. وقالت للاتباع :

الوصول الى الحكم باى سبيل ولو بتغيير جلدنا .. فهل هؤلاء هم أهل العلم الحق .. أم أهل الانتهازية والميكانيلية .. وكلاب السلطة والسفاحون الجدد من كل الملل والنحل .

أقول هذا لشبابنا البرىء المخدوع المخدر بالشعارات الذى يسير بحسن نية وراء دعوى العلمية والتقدمية .. والأمر أبعد ما يكون عن العلمية والتقدمية .. بل هو فى الواقع جاهلية مادية وتخلف ذهنى وتآمر ماكر وحاقد يضمر الثأر والتنكيل بالمجتمع كله ويخفى شهوة اقلية من هواة السلطة تريد أن تركب الغوغاء لتصل الى الحكم وترفع فى مسيرتها رايات السلام وتنشد اناشيد السلام وتخفى الخناجر بين أنيابها والغل تحت أهابها .

واقول حذار .. حذار .. فسندفع جميعا الثمن ..

لن نتقدم شبرا واحدا الى الأمام ..

بل سنتقهقر مئات السنين الى الوراء ..

ان الغزو الشيوعى للمنطقة العربية ليس هو « عودة الروح » التى يحلم بها اليساريون .. وانما هو الطمس الكامل لروح المنطقة وسلبها مقوماتها وتراثها .

ان ثمرة الزواج غير الشرعى بين الفكر المادى وبين هذه الأرض الطاهرة أرض الأنبياء .لن تكون الا مولودا مشوها بلا نسب .

انهم يستثمرون الأزمة الاقتصادية ويثيرون الرفض والسخط والحقد ثم يركبون على أوجاع الناس ويلوحون أمام العطاشى الجياع بأن لديهم الدواء الناجع .. وهو الشيوعية .

ولكن الشيوعية هى الداء وليست الدواء ..

وهى سبب كل هذا الانهيار الاقتصادى الذى حدث فى مصر ..

- التأميم الذى انتهى الى هبوط الانتاج وتخلفه كما ونوعا .
- اضطهاد الخبرات والكفاءآت وطرد أهل التخصص وتعيين أهل النفاق .
- تحكم مراكز القوى .
- سيادة الحزب الواحد والرأى الواحد .
- التبعية لروسيا .
- الديون الروسية .
- الحروب التى دفعتنا اليها روسيا لتستنزف المال والسلاح ولتغرقنا فى مزيد من الديون .

● تمزق الصف العربى .

وكلها أخطاء جرتنا اليها الحلول الماركسية التى نقلها عبد الناصر نقل مسطرة من المعسكر الشرقى .

وهل عرفنا طوابير الجمعية التعاونية الا على أيديهم .

وهل عرفنا سوء الخدمة وزحام الاتوبيسات الخانق الا على أيامهم .

واليوم يلوحون لنا بالشيوعية .

وهل عند الشيوعية الا المزيد من نزع الملكيات والمزيد من التاميم والمزيد من القطاع العام والمزيد من الجمعيات التعاونية السائبة وبالتالى المزيد من المعاناه والفقر والبروقراطية والفساد .

وهل عندهم الا القمع والأساليب البوليسية .

وهل تنعدم الشكوى فى البلاد الاشتراكية الا لسبب واحد .. ان الالسن مقطوعة والأفواه مكممة .

وهل الرخاء فى البلاد الاشتراكية الا مجرد منشورات وتصريحات رسمية وأغانى وبرامج أعلامية ..

والطوابير الهائلة أمام الخيار فى موسكو وشوربة الكرنب هى أصدق دليل .

أن الجنة عند الشيوعية لم تكن الا كذبة اعلامية .

والذين عاشوا وراء الستار الحديدى فى روسيا وبولندة والمجر يعرفون كم كانت هذه الجنة جحيما .

ونحن نعيش كما قلت فى عصر الكذابين المحترفين ونشهد التزييف تديره أجهزة اعلامية والباطل تردده الأبواق الاذاعية ليل نهار ونقرأ التضليل يطبع على أنه علم والانحرافات تروج على انها نظريات والعمالة للدول الأجنبية تمارس على أنها شرف وولاء للأممية والانسانية .. والكفر ينشر على أنه حرية وتفتح .

وفى هذه الدوامة من الأحابيل الماكرة يغرقون شبابنا وهم فى سكرة مراهقتهم .. وهم اشد ما يكونون استعدادا للرفض والتمرد .. ويصنفون الخلايا من اولاد وبنات فى سن شهوة ويزينون لهم الصحبة ويرفعون منهم الحرج ليشدوهم بسلاسل غرائزهم الى الانتماء الجديد .

هذا ما يحكيه طلبة الجامعة عما يجرى الآن من تنظيمات جديدة تبدأ فوق الأرض ثم تنتقل صفوة قياداتها بعد ذلك تحت الأرض حيث يصورون لهم انهم سيكونون صناع التاريخ وطلائع المستقبل .

هذا ما يجرى بين ايدينا وخلف ظهورنا .

فحذار حذار يا شباب مصر مما يكاد لكم .

فانتم جميعا ومن ورائكم مائة مليون عربى .. سوف تدفعون الثمن وترتدون بالتاريخ مائة سنة خلف أسوار من حديد .

ان عودة الروح لمصر لن تكون الا بالعودة الى القيم والمثل والمبادىء .. الى المنابع النورانية لهذه الأرض . ارض الانبياء .. وبغير ذلك لن يقوم لنا تاريخ ولن يرتفع لنا صـــوت ..